

كلام صيني من القلب.. عاطفي وحكيم وساخر

قصة الكاتب الصيني الأشهر لاوما للمرة الأولى بالعربية



اهتمام غير مسبوق بالأدب الصيني، ظهر مؤخرًا في غير عاصمة عربية وعبر أكثر من دار نشر، ومن خلال نشاط عدد من المترجمين العرب الذين درسوا الصينية وابتأوا ينقلون عنها مباشرة وليس عبر وسيط لغوي كالإنجليزية أو الفرنسية كما كان يحصل سابقًا. بل إن بعض مترجمي الأدب عبر اللغة الصينية باتوا أسماء معروفة في الصين التي كرمت مؤخرًا بعضهم كبارا المصري التي فازت مؤخرًا بجائزة صينية كبيرة. في هذا السياق من ازدهار سوق الأدب الصيني بالعربية صدرت مؤخرًا مجموعة قصصية في أدب القصص الصيني الساخر.



محمد الحماصمي
كاتب مصري

يضم كتاب "كلام من القلب" للكاتب الصيني لاوما والذي نشر مؤخرًا في القاهرة ومترجمته ميرا أحمد مجموعة من القصص والحكايات الساخرة، التي تلقي الضوء على بعض المواقف الإنسانية بطريقة طريفة. وقد تناولت القصص وقائع حياة ومواقف لاساتذة الجامعة وصغار الموظفين وسكان الأرياف، والحياة الريفية عموماً التي يغلب عليها شيء من السذاجة والمعتقدات البالية.

تشير ميرا أحمد إلى أن القصص تحمل رسائل وقضايا تهم الكاتب حاول التعبير عنها بشكل غير اعتيادي من خلال السخرية الواعية التي تبعد كل البعد عن الهزل والمجون، بل تلك السخرية التي تحمل بعداً فلسفياً عميقاً ومعاني بعيدة من خلال الغوص في أعماق الذات البشرية وسبر أغوارها الدفينة وكثي المسائى والأخطاء والعيوب وأوجه القصور في شكل أدبي مكثف. وقد برع في التعبير عن أفكاره بلغة أنيقة ورشيقة وبسيطة في أن وتبتعد عن الإبتذال، فعلى الرغم من روح الكوميديا والتي حملت بين طياتها شيئاً من الكوميديا السوداء، إلا أنه قد حافظ على سلامة الأسلوب اللغوي والذي ابتعد عن العامية وتجلت براعة قلمه الأدبي الفريد في التشبيهات والصور البلاغية التي تضمنت القصص.

إدانة السخرية

في سياق تقديمها للمجموعة الصادرة عن "دار غراب للنشر" تقدم المترجمة استعراضاً مهماً لتاريخ الأدب الساخر في الصين، حيث تشير إلى أن أول ظهور للأدب الساخر كان في "كتاب الأغاني" في عهد أسرة تشين الأولى، ثم ظهر في بعض الروايات في عهد أسرة تانغ ومينغ، لكنها كانت كتابات مبالغاً بها ولا تمت بصلة إلى الحياة الواقعية والمشاعر الإنسانية الحقيقية، وحملت الكثير من التباس المعاني.

وفي عهد أسرة تشينغ صارت الكتابات الساخرة موضع إدانة وخاصة التي تتعلق بالأمور السياسية، مثل رواية "السجلات الرسمية للموظفين" للكاتب ليو باو جيا، و"أزهار في بحر الخليفة" للكاتب تشنغ بو وغيرهما من الروايات الأخرى.

الأدب الساخر ليس مجرد مجموعة من النكات أو كلمات المزاح يطلقها قلم الكاتب لمجرد التنكيت، لا، الغاية أسمى من هذا بكثير، بل هو يحصن أرواحنا قبل أن تتداعى وتنهار من فرط المشاعر السلبية والذل والشعور بالظلم والذل

وتضيف "في مطلع القرن الماضي بات الأدب الساخر قالباً فنياً هاماً، وكان رواد هذا القالب الأدبي في هذه الفترة الكاتب لوشون، وتشانغ تيان بي، وخوانغ تشون مينغ. وتجسدت بعض السمات التي ميزت كل كاتب عن الآخر، فعرفت سخرية لوشون بالسخرية الباردة، وسخرية تشانغ تيان بي بالسخرية الساخرة، بينما اتخذ خوانغ تشون مينغ قالباً قائماً بذاته وهو الكوميديا الهزلية".

الرائد لوشون

تلقت ميرا أحمد إلى أعمال الكاتب الكبير لوشون وهو رائد الواقعية النقدية بالكوميديا السوداء التي تلقي بظلالها على الجوانب المعتمة في الحياة، وتوضح مساوئ وعيوب الشخصية الصينية التقليدية، فثار في أعماله على العادات والتقاليد البالية التي قد تؤدي بحياة الإنسان، حاول اقتلاع الجهل المتاصل في نفوس البشر، وإيقاظهم من غلظة الحياة المنغمسين بها، فكان أشبه



ميرا أحمد.. قدمت ترجمة بارعة لقصص ستترك أثرها في القراء العرب

قصة لاوما تؤكد أن الشعب الصيني لا يفتقر كما يشاع إلى الطرافة وحس الدعابة

قصصه وأثرت القوالب النمطية للرواية المعاصرة، وخلق شكلاً إبداعياً فريداً في الإبداع القصصي". وذكر المترجم الكوري جينتا تشنغ في مقدمة نسخته الكورية المترجمة عن أعمال الكاتب لاوما "إن غالبية الأعمال التي يقدمها الكاتب الصينيون تتخذ من قالب الرواية أساساً لها، حتى الأعمال الإنسانية التي من المفترض أن تلعب على مشاعر القراء، يبدو السرد بها مزجاً إلى حد ما ويشعر القارئ بالملل نحوها ولا يحظى الكاتب بالتقدير الذي يستحقه. بينما جاء الكاتب لاوما وأحيا الألب القصصي الساخر المتمثل في القصة القصيرة بعد أن اخفت تقريباً من الأعمال الأدبية الصينية".

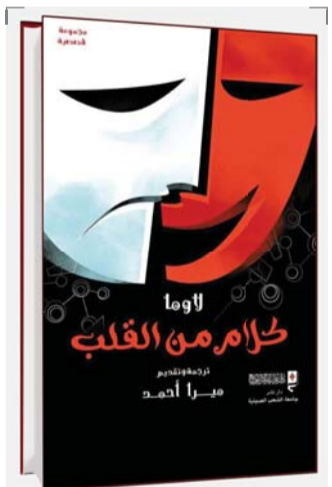
وتخدم ميرا أحمد تقديمها للمجموعة بتوضيح أسباب تحمسها إلى ترجمة هذا العمل، تقول "مازلت أذكر اليوم الذي كنت فيه في العاصمة بكين للمشاركة في دورة تدريبية للترجمة الأدبية ويومها كنت أحضر ندوة للكاتب لاوما على هامش معرض بكن الدولي للكتاب، وأخذت أطلع كتابه، وقبل الانتهاء من القصة الأولى، كنت قد انتويت ترجمة هذا العمل.

وبعد انتهاء الندوة جمعني بالكاتب حديث طويل ورحب بمشروع الترجمة لأعماله. مازلت أذكر هذا الشعور الذي خالطني منذ الوهلة الأولى وأنا أطلع الكتاب، فأحسست أنني لم أصادف مثل هذا الأسلوب الأدبي من قبل، رغم أنني قرأت الكثير من الأعمال الإبداعية الصينية وترجمت منها الكثير، لكن ثمة شيء مختلف في هذه القصص.. نهاية مختلفة في أسلوب الكاتب لم أعدها من قبل.. نعم، قد ترجمت من قبل معظم أعمال الكاتب الكبير لوشون رائد الواقعية النقدية وقد حملت أعماله لظلال الكوميديا السوداء لواقع المجتمع الصيني آنذاك، لكن هذه القصص تشعر أنها قصص كل العصور، ترى فيها نفسك وواقعك وحياتك.. ترى عبر أبطالها الوطن والصديق وكل فرد من أفراد عائلتك.. ترى الماضي والحاضر وربما تبصر المستقبل. فالكاتب هنا ليس مجرد كاتب، بل تشعر أنه فيلسوف يرى الأمور بنظرة فلسفية عميقة، أو ربما تشعر أنه طبيب يداوي الجراح.. جراح القلوب وعلات النفوس.. فهو على يقين أنه لا محالة أن الضحكات سترن في الأنياب والتي قد تواري خلفها بحورا من الدموع.. ضحكات انتزعها من تفاصيل الحياة ومن مفارقات الأحداث. ويبدو أن الكاتب يعلم أننا جميعاً في حاجة إلى الضحك حتى نقدر على العيش على أرض الواقع، وربما كان هو من في حاجة إلى هذا الضحك؛ لأنه قد ضجر ذلك البكاء الأخرس الذي يميم أرواحنا بالموت البطيء... ربما؛ فهذه المجموعة القصصية تحمل سمة هامة ألا أنها ستخلد كتابتها، وكاتبها سيخلدها في تاريخ الإنسانية وتاريخ الأدب الصيني".

الكتابة السردية في الرواية، وتمثل هبة هذا الجنس الأدبي العظيم. ويرى معظم الكتاب أن كلما طالت الرواية، ارتفعت قيمتها، لكن الكاتب والأستاذ الجامعي لاوما يحض هذا الرأي بأسلوبه السريدي البسيط".

أعمال فريدة

ذكر الكاتب الصيني الحاصل على جائزة كافكا في الأدب حينما تحدث عن أعمال لاوما أعمالاً فريدة، لأن الحس الفكاهي في الروايات الصينية شيء نادر. في نظر بعض الأجانب تعد الصين بلداً يفتقر إلى روح الدعابة، والشعب الصيني يفتقد روح الدعابة في الحياة اليومية، بينما في أعمال لاوما تجد الفكاهة حتى بين سطور الكلمات". ووصف أسلوبه الساخر قائلاً "استفاد لاوما من قصر قصصه، وراح يمزج بين الكتابة النظرية والسرد والوصف وتقنيات الكلام وأنتجت له حرية الحركة والتنقل عبر الكلمات، فتجاوزت



الكتابة السردية في الرواية، وتمثل هبة هذا الجنس الأدبي العظيم. ويرى معظم الكتاب أن كلما طالت الرواية، ارتفعت قيمتها، لكن الكاتب والأستاذ الجامعي لاوما يحض هذا الرأي بأسلوبه السريدي البسيط".

البالية ورغبة دائمة في تغيير الواقع من حوله.. الكاتب الساخر لا يقبل بالمسلّمات ولا يرى ظاهراً الأشياء، بل يتعمق إلى باطنها، فهو يمتلك عينين مختلفتين عن الإنسان العادي، فهو يرى الواقع من حوله بعين مغايرة ويبحث دائماً عن مفارقات الأحداث حتى تتولد السخرية، وربما يحاول أن يجعلنا نضحك على حالنا قبل أن يضحك عليه الآخرون.

كاتب كبير

أيضا تعرف ميرا أحمد في مقدمتها بكاتب المجموعة لاوما واسمه الحقيقي ما جون جيه ويعمل الآن أستاذاً في جامعة الشعب الصينية وهو عضو في لجنة الإبداع الأدبي في تسعينات القرن الماضي، وقد اشتهر بكتابة القصص القصيرة ونشرت له العديد من مئات القصص في المجالات الأدبية. وتم اختيار أكثر من مئة قصة قصيرة من أعماله وأدرجت ضمن "قصص القرن الحادي والعشرين"، و"أفضل الروايات الصينية" و"أفضل القصص القصيرة الصينية" و"مئة قصة في مئة عام من القصص الخيالية القصيرة" وغيرها من القوائم الأخرى. وله العديد من المجموعات القصصية مثل "إبتسام مصطنعة"، و"انظر من فضلك"، و"حفل من أجل فرد واحد"، و"سعادة مئة بالمئة"، و"ما وراء الكلام" وغيرها من المجموعات القصصية، وكتب العديد من المقالات النظرية مثل مجموعة بعنوان "منطق الضحك" و"حينما تقرب تراه جبلاً، وحينما تبتعد تراه شجرة"، وكتب أيضاً بعض النصوص المسرحية وقد ترجمت أعماله إلى العديد من اللغات الأجنبية. وتعد هذه الترجمة هي الترجمة العربية الأولى لأعماله.

حصل على العديد من الجوائز الأدبية مثل جائزة بو سونغ لينغ (القصة القصيرة)، وهي جائزة تقدم منذ عام 2005 ويعد بو سونغ لينغ من أهم كتاب أسرة تشينغ، وقد اشتهر بقرابة الأسلوب السريدي. وحصل على جائزة "جريدة أكتوبر" في دورتها العاشرة وحصل في عام 2014 على جائزة الأدب المنغولي الكبرى، وتعد هذه هي المرة الأولى التي تمنح هذه الجائزة إلى كاتب صيني، وبهذا يعد الكاتب الآسيوي الثالث الذي يحصل هذه الجائزة الرفيعة بعد الياباني تانيكاوا والكوري قاو بين. وتتشير ميرا أحمد إلى ما كتبه نقاد ومبدعون صينيون كبار عن لاوما حيث يرى الناقد لاي دا أن لاوما يتمتع بأسلوب ساخر فريد في استيعاب جوانب الحياة والملاحظة الدقيقة لتفاصيلها، مما يعطي القارئ تجربة أدبية غير مألوفة، وقال الكاتب مويان الحاصل على جائزة نوبل في الأدب في تقييمه للكاتب لاوما "الطول والقالب الجامدة والعادات والتقاليد

بناقوس خطر يدق، ليوقظ النائمين من سباتهم العميق وينبتهون إلى واقعهم المرير. ومن أهم أعماله التي جسدت هذا النمط السريدي "القصة الحقيقية لأكيو"، و"السوء"، و"قطط وكلاب"، و"مذكرات مجنون"، و"الإخوة" وغيرها من الأعمال الأدبية الأخرى.

وترى أن الكتابة الساخرة لا تختلف كثيراً عن الكتابة السريدي المتعارف عليها، فهي وسيلة من الكاتب ليعكس الواقع دون أن ينتقص منه شيئاً، يعكسه بما هو عليه من جمال وقبح.. يعكسه بألوانه البهيجة والألوان القاتمة.. يعكسه بأفراحه وأحزانه. يقدم نظرة شاملة وعميقة للحياة، وليست رنات الضحكات والقهقهات هي غايته، فالأدب الساخر ليس مجرد مجموعة من النكات أو كلمات المزاح يطلقها قلم الكاتب لمجرد التنكيت، لا، الغاية أسمى من هذا بكثير، بل هو يحصن أرواحنا قبل أن تتداعى وتنهار من فرط المشاعر السلبية التي تعترينا.. من الانكسار وخيبة المسعى.. من الهوان والإهانة.. من الخوف والخواء. لا يكتب الكاتب الساخر بقلم مشحون، بل يكتب بسلاح يطلق مفارقات مدوية وتفصيلات نارية ومشاهد حياتية تجرح الضحكات على الوجوه العابسة، وفي الوقت نفسه تبكي القلوب حبيسة الصدور. الأدب الساخر هو خير سلاح لتحقيق التوازن النفسي وسط مجتمع مليء بشتى الاضطرابات النفسية.

وتوضح ميرا أحمد أن الكاتب الساخر ربما يكون يحاول هو أيضاً أن يحصن روحه من انكسارات أو خسارات لحقت به.. فالكاتب هو في النهاية إنسان من لحم ودم. يمر بتجارب إنسانية وحياتية قد تعصف به وتزلزل كيانه الرصين، فكيف يقدر على مواصلة الحياة إلا بالسخرية من واقعها وما فرض عليه من عادات وتقاليد تقيد روحه وتحبسها في سجن يقيم به إقامة جبرية، فيبحث بعينه الثاقبتين عن أشياء وتفصيلات صغيرة تعلق الموازين، وتبقي من خلالها ضحكات تحمل بين صوته الهادر كماً من الألم وكماً من الأثين؛ وفي بعض الأحيان يترك الكاتب العنان لكلماته الساخرة والعبارات الهزلية فيقع في المحذور ويتحول من كاتب إلى مهرج.. فشهرة بسيطة تفصل بينهما، وكلما تمتع الكاتب بأفكار هادفة وثقافات متنوعة، ارتفعت قيمة كتاباته الساخرة وارتقى بها إلى منزلة سامية تترك بصمة جليلة في نفوس القراء.

وتتابع أن الكاتب الساخر هو كاتب من طراز خاص؛ فهو لا يمتاز بامتلاكه للحس الفكاهي فحسب، بل ينبغي أن يكون شديد الملاحظة لتفاصيل الأشياء من حوله وعلى قدر كبير من الثقافة، ويمتلك حساً نقدياً عالياً وقدرته على الثورة على القوالب الجامدة والعادات والتقاليد